كلية الآداب واللغات

قسم الفنون

السنة الثالثة فنون درامية/ السداسي الخامس

مقياس: نقد مسرحي حديث ومعاصر

المحاضرة رقم 03 بعنوان:

"ما معيار النقد في فكر الفيلسوف كاسيوس لونجينوس في النقد الأدبي؟"

يعرف الناقد "كاسيوس لونجينوس" مصطلح السمو بطرحه سؤالا وجيها: 'هل هناك حقا وجود لمثل هذا الأسلوب الرفيع في الأدب'، فالأسلوب الرفيع عند لونجينوس هو استعداد فطري أو هبة موروثة لا بعد تعهدها بالتثقيف والرعاية والصقل عن طريق وسائل عديدة، أما عن الخبرة والمهارة في نظره أمران ضروريان إذا ما أردنا للموهبة الفطرية أن تؤتى ثمارها وأن تصل إلى الغاية المرجوة منها.

بينما يعد لونجينوس مفكر وناقد بأسس واقعية، فهو يعتقد أن هوميروس الذي رفع إلى مصاف الأرباب لعظمته، وأفلاطون النجم الساطع في سماء الفكر الاغريقي وصاحب أصفى أسلوب وأجمل لغة، لهما هفوات وزلات مختلفة.

ينبري لونجينوس لتعريف الرفيع من خلال توضيحه أن 'المهارة في التعبير الرصين نابعة من المصدر الذي يستمد منه الشعراء المتميزون والأدباء ذوي الكعب العالي سموهم، ويحققون عن طريقه الشهرة الخالدة'، وبالتالي فإن المهارة الابتكار والنظام المنسق الدقيق، وترتيب الأفكار يؤلفون فيما بينهم مزيجا رائعا، يبدو كخلاصة فريدة بعيدة عن منال من هم متوسطو المقدرة، فضلا عن أنها ليست نتاجا لعامل واحد فحسب أو عاملين، بل هي وليدة النسيج كله ومحصلة للتركيب برمته.

يعتقد لونجينوس أن على الناقد أن يصل إلى الحكم الصائب على قيمة الأدب من خلال الخبرة الطويلة، وأن اللذين يحظون بهذه الخبرة أو يتمتعون بهذه المقدرة هم وحدهم الذين لهم الأولية للتمييز بين ما هو حقيقي أصيل وبين ما هو زائف مصطنع.

بينما هنالك خمس مصادر للأسلوب الرفيع ومناقشتها عند لونجينوس وفقا للنحو التالي:

- ✓ عظمة الفكرة ومقدرة الكاتب على خلق تصورات سامية بما يمتلكه من قبضة محكمة على الأفكار.
- ✓ المشاعر المتأججة والعاطفة القوية الملهمة.
- ✓ الاستخدام المؤثر والفعال للأساليب البلاغية وترتيب المفردات ترتيبا مناسبا.
- ✓ اللغة الواضحة السلسة والتعبيرات السامية والمفردات المؤثرة.
- ✓ التأليف الشامخ الجليل والقدرة على التأثير المؤدى إلى عظمة والسمو.

يعد لونجينوس أول ناقد رومانسي وأول ناقد للأدب المقارن، قبل أن يعرف الناقد كيفية مقارنة أدب بأدب آخر مدون بلغة أخرى، بيد أن لونجينوس على خلاف أرسطو لا يهتم بشرح الأنواع الأدبية ولا يركز على أجناس بذاتها منها مثل الملحمة أو التراجيديا، ولا يجعل جل همه تقديم نظرية أدبية للفن تتعرض لماهيته أو طبيعته أو وظيفته، بل يضع نصب عينه في المقام الأول العبارة أو القصيدة أو ذلك الجزء من العمل الإبداعي الذي يلح في جذب اهتمامنا.

كان يتمثل الجمال الفني في العصور الوسطى إلى كل ما يوحي بالحقيقة الروحية، حيث كان الفن خاضعا لسيطرة الكنيسة منذ انقسام الإمبراطورية الرومانية حتى عصر النهضة، ولما كانت الطبيعة تكشف عن العناية الإلهية فقد وجد فلاسفة العصور الوسطى كالقديس توماس الأكويني على التوحيد بين الجمال والتناسب، والنظام الذي يرضي الحس والعقل ويوحي بالتأمل في عظمة الخالق.

يعتبر كتاب 'الأسلوب السامي' للونجينوس' منبعا في مجال تاريخ النقد الأدبي عموما، ولبنة ذات ثقل في النظرية النقدية على مر العصور، حيث إن مؤلفه لا يكف عن ضرب الأمثلة الدالة والمعبرة، وعن الشرح والتوضيح والتحليل، وهي مهارات تنم عن حس أدبي مرهف وعقلية نقدية فذة لا جدال وتذوق فريد لأساليب التعبير الجمالية، لذا فإن الاستشهادات المستقاة من المصادر الأدبية الكثيرة، تضع لونجينوس في منزلة الحكم الممتاز والناقد الخبير، ذلك أن استشهاداته المستمدة من ملاحم هوميروس ومن محاورات أفلاطون ومن خطب ديموستينيس وهيبريديس، كذا تعليقاته المدهشة على قصيدة للشاعرة سابفو استشهد بها في عمله، وكذا عقده مقارنة بين كل من ديموستينيس وشيشرون أو بين ديموستينيس وهيبريديس.

كلها أمور تجعل القارئ يندهش بحق لسعة اطلاعه ولعمق آرائه النقدية ولذوقه الرفيع، وعليه اعتبر الناقد لونجينوس أن يدرج في قائمة أعظم نقاد الأدب على مر العصور منذ العصر الكلاسي، وهذا لكونه ليس فقط ناقد رومانسي بل هو أيضا أول ناقد للأدب المقارن، قبل أن يعرف الناس مقارنة أدب بأدب آخر مدون بلغة أخرى.

ولأن لونجينوس عاش في عصر اضمحل فيه الابداع، وغابت عن سمائه الحرية السياسية، وغربت عنه الروح الديمقراطية، فإنه يختتم في كتابه (الأسلوب السامي) بتساؤل أشبه بالتعجب، فيقول: "ترى هل توافق الأدب الإغريقي مع الديمقراطية؟ وهل الحرية قادرة وخدها على احتضان العبقرية وشحنها بالآمال الكبار؟"، هذا ما يؤكد لنا عن اقتناعه بقدرة الحرية على احتضان العبقرية وعلى افعامها بما يغذيها ويحييها، حيث أن الإنسان خلق تواقا للحرية وكارها للعبودية بطبعه، هذا الرأي يأتي ليحاكي منطق التفاعل والتداخل في الفكر

القروسطي الذي يعتبر الديمقراطية وحتى وإن تشكلت في نصوص الأدب ونقده، فإنه بذلك سيتوافق مع الأبعاد النقدية التي سنها توماس الأكويني في تحصيل مفكرة النقد في أبعاده التاريخية والاجتماعية والنفسية.

بين الفينة والأخرى، نجد أن هاته المقاربات تحيلنا إلى الكشف عن ذلك النقد الذي لا يعتريه الشك بتعامل مع الحقيقة واليقينية positivism، رغم إهماله أحيانا لتحليل العلاقات، وهذا النقد الوضعي نجده مسلما لأفكار لونجينوس، عكس ما كان متداولا في الفترة اليونانية القديمة أين أصبحت مهمة النقد الانطباعي impressionistic مقتصرة في نقل (انطباعات) البصر أو العقل في تقصير عن تصوير الواقع الموضوعي، نقد يرتكز على اللحظة غير المتأنية أو العميقة، ويستند إلى الحاسة وحدها، ويبنى رأيه على الانطباع.

لذلك فهو نوع من النقد غير موثوق في صحة العناصر النقدية، لأنه يفتقدها تشريحا وتحليلا، وبالتالي نجد أن رأي الناقد 'سانت بيف' موازيا لأفكار الناقد لونجينوس في أن الناقد هو الإنسان الذي يعرف القراءة، ويعرف كيف يعلم غيره القراءة، والقراءة هنا بمعنى استقراء الأعمال الفنية وقراءتها شكلا ومضمونا ليكون نقدها تعليما للجماهير.

وعليه، يشترط في المبدع أن يكون لديه استعداد فطري واكتساب ثقافي معرفي، يشترط كذلك في الناقد أن يكون موهوبا، وذي اكتساب ثقافي واسع، إذ تقوم موهبته أساسا على حسن الفهم، والتذوق، وقوة الملاحظة، ومعرفة الفروق الدقيقة بين أساليب التعبير المختلفة، وهدفه التفسير والتحليل والتقدير والتقويم والحكم الصائب، في حين يقوم اكتسابه على مؤهلات تتزايد عند الناقد، واتساع ميدان ممارسته من جانب، وتعقد النصوص الإبداعية، وتعدد الاتجاهات النقدية من جانب ثان.

ليحمل النقد على عاتقه وظيفة تتمثل بتحديد مساحة الجمال في النص، وعلاقة النص بالوجود، فيكون النقد في هذين المفهومين ثريا بالعلوم، بسبب الثراء الأدبي حتى ناد النقاد القدماء بأن النص الأدبي يتكون من

علوم كثيرة، اختلف عددها، فصار يقينا أن العلوم الأخرى تشابكت مع علمي النقد، والاسلوبية، بمعنى أن بعضا من التصورات كعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الرياضيات صارت مهيمنات فكرية في النقد والأسلوبية، أو بالأحرى محركات ابيستيمولوجية في ولادة بعض المناهج النقدية، والمناهج الأسلوبية، فكانت تلك المناهج في العلمية بينية بلا أن يشعر القائمون عليها، وبلا أن يتضح العلم البيني، بل أنه مورس بصورة جزئية يتناغم مفهومها مع ما قامت به اللسانيات البينية من مفهوم.

المكتبة البيبليوغرافية:

- رسالة لونجينوس عن الأسلوب السامي (الرفيع).
- عبد المجيد زراقط، النقد الأدبي... مفهومه مساره التاريخي ومناهجه.
- Dionysius Longinus, Sublime : translated from the Greek.